البعث

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأديب عادل الجمال

— ١ —

لم يكن هناك فى قرية « فيكامب » من يجهل تاريخ الأم « باتان » الحافل بألوان الشقاء . . . كما لم يكن يختلف اثنان فى الحكم على قسوة معاملة زوجها لها طيلة حياته

اتخذها باتان زوجة له منذ عدة سنوات حين كانت فى نضارة الصبا وقد حباها القدر بقسط وافر من الجمال والجاذبية ... فى حين كان هو بحاراً ماهراً عملاقاً اعتاد الذهاب إلى حانة المجوز «أوبان» لتناول أربع أو خمس كؤوس من الكحول . ولم يكن ذلك هو الحد الأعلى لملء فراغ معدته . . . بل كثيراً ما ارتفع ذلك الرقم إلى ثماني أو عشر كؤوس ... ربما زادت على ذلك قليلاً إذا ما كانت صفقة صيده رابحة . وكانت ابنة أوبان هى التى تشرف بنفسها على خدمة رواد الحانة الذين أسرتهم عيناها الحالكتا السواد، وامتلكت أفئدتهم بقوامها الرائع الممشوق

ويوم جاء باتان إلى تلك الحانة للمرة الأولى ... اكتفى بإطالة النظر إلى الفتاة فى شوق وحنين وهو يشير إليها من طرف خفي . وازدادت فتنتها فى عينيه حين ارتشف كأسه الأولى . . . فما كاد يأتى على الثانية حتى كان يلتهمها بعينيه فى نشوة وشراهة . واستقرت محتويات القدح الثالث فى جوفه فتمتم قائلاً دون أن يتم جملته : « لو كان فى إمكانك فقط أيتها الآنسة ديزيريه ... »

ومع فراغ القدح الرابع كان باتان ممسكا بثوب الفتاة وهو يحاول تقبيلها

وتعددت الكؤوس ... واكتملت عشراً ... وحينئذ أرسل أوبان المجوز ابنته إلى الخارج وراح هو بنفسه يشرف على خدمة البقية الباقية من زبائنه الساهرين . كان أوبان رجلاً حاذقاً لا تخفى عليه خافية ... فكان يترك ابنته تتنقل برشاقتها بين الموائد لإغراء الزبائن حتى يستزيدوا من خمره تاركا لها مطلق الحرية فى توزيع ابتساماتها الرائعة وإرسال سهام عينيها إلى أفئدة المخمورين وهو واثق منها كل الثقة دون أى محاولة من جانبه لاكتشاف سر ذلك البريق الذى كان يشع من عينيها .. البريق الغامض الذى كان ينعكس فى أعوارها كلما حاولت امتحان عواطفها إزاء رجل من زبائن الحانة

وأصبح وجه ديزيريه مألوفاً لدى باتان من طول تردده على حانة أوبان ... فكان يراها ماثلة أمامه وهو فى مركب صيده ناشراً شباكه فى المياه الهادئة أو الصاخبة على حد سواء ... أو كان يتخيلها تومئ إليه فى حلكة الليل الساجى . أو تحت ضوء القمر الفضى الساهر . . . فكان يطيل التفكير فيها . . . وكم كان يهنأ بذلك التفكير وهو فى جلسته عند

مؤخرة المركب ، ويده مستقرة على سكانه ... بينما ارتكزت رؤوس بحارته الأربعة على أيديهم ، وقد راحوا تحت تأثير نومة استسلام هادئ لذيذ بعد إجهادهم اليومى المرهق ... وفى كل تلك الحالات التى كان يتخيلها فيها ... كان يراها تبتسم إليه وهى ترفع يدها لتملأ كأسه بالرحيق الملون هامسة وهى تتأهب للابتعاد عنه :

— أليس ذلك هو كل ما تطلب ؟

وأحس أخيراً أنها أصبحت تشغل حيز تفكيره كله ... فلم يستطع كبت تلك الرغبة التى كانت تلح عليه فى أن يتخذها حليلة له . وطلب يدها من أبيها

وأجيب باتان إلى مطلبه : فقد كان يمتلك مركباً وشباكاً ، علاوة على منزل بالقرب من الميناء ... فى حين كان أوبان العجوز لا يمتلك شيئاً ... وتمت معدات الزفاف دون تأخير .

وانقضت ثلاثة أيام استيقظ بعدها باتان من الحلم الذى كان يعيش فيه ، وهو يعجب كيف أنه اعتقد يوماً أن تلك الفتاة ديزيريه تختلف فى شىء عن غيرها من النساء . وابتدأ ينعت نفسه بالجنون ، ويعيب عليها ضعفها وخضوعها لذلك القيد الذى قيدت نفسها به ... القيد الأبدى الذى استسلم إليه تحت تأثير الخمر ... نعم ! لقد كانت الخمر هى السبب فى ذلك الزواج ... الخمر التى كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن الفتاة قد مزجتها ببعض العقاقير السحرية للايقاع به

ولم يكف باتان عن سب نفسه طوال ذلك الوقت ... وما كاد يصل إلى ذلك الحد من التفكير حتى ألقى فضلات التبغ المتبقية فى غليونه ، وراح ينقل أسماكه الواحدة إثر الأخرى ، وهو يغمغم غاضباً

وعندما وصل إلى منزله وجد زوجته — ابنة أوبان العجوز — قابعة هناك كعادتها . فلم يحيها بحرف . بل راح يكيل لها ألفاظ السباب الحادة ... فقابلتها الفتاة بأحد منها ، إذ كانت طبيعة والدها الهمجية متأصلة فيها . وكان ذلك مما يزيد فى غضب زوجها وإيلامه . ولكن تلك الآلام لم تبلغ الذروة إلا فى تلك الليلة التى اعتدى عليها فيها بالضرب

وخلال السنوات العشر التى تعاقبت بعدئذ .. لم يكن هناك من حديث يدور بين أهل الميناء إلا عن تلك المعاملة القاسية التى كان يتبعها باتان مع زوجه ، لا لشىء إلا لأنه كان موهوباً بالسليقة بلهجة فى سبابه لم يكن هناك فى فيكامب من يضارعه فيها

وعاشت المرأة المسكينة فى جو من الخوف والرعب عشر سنوات كاملة اعتادت أثناءها الوحدة والسكون ، عشر سنوات كاملة كان فيها الكفاية لتجعل منها هيكلاً هزيلاً يشبه هيكل سمكة صغيرة جافة .

— ٢ —

استيقظت المرأة فجأة ذات ليلة على صوت أنين الرياح وهمهمة رياح البحر ... فجلست على فراشها وراحت أفكارها تتجمع فى نقطة واحدة حتى تركزت فى ذكرى زوجها الغائب فى مركبه وسط ذلك البحر الثائر ، وسكن الصوت ... فاستلقت على فراشها ولكنها لم تكد تغمض عينيها حتى هبت فزعة وقد روعها صوت العاصفة ، وقفزت من الفراش ثم هرولت نحو الميناء التى كانت قد امتلأت بجموع النساء وقد حملن فى أيديهن المصابيح ينرن بها الطريق للرجال الذين هرعوا بدورهم إلى هناك لمحاولة نجدة من يحتاج إليهم من الصائدين ... وظلوا محدقين فى المياه السوداء الممتدة أمامهم فى جلال وروعة وقد بدت أشباح مراكب الصيد الصغيرة وهى ترتفع وتنخفض فوق الأمواج الصاخبة ،

ودامت العاصفة خمس عشرة ساعة

وكان من نتيجة ثورة الطبيعة أن أحد عشر صائداً قدر عليهم ألا يعودوا إلى منازلهم قط . . .

وكان پاتان من بينهم

وقذفت الأمواج بحطام سفينة پاتان « أميلى الصفراء » إلى أحضان شاطئ « سان فاليرى » .

ولكنها لم تظهر أى أثر لجسد پاتان

كان من الممكن أن يكون قد أصبح طعاماً للأسماك ... كما كان من الممكن أن يكون قد انتشل من المياه وأبحر مع منقذيه إلى حيث يقصدون

وعودت المرأة نفسها الحياة كأرملة ... ولكنها إلى جانب ذلك لم تكن تمتنع عن استقبال سائل أو مسافر أو بحار داخل مخدعها

وانقضت أربعة أعوام على اختفاء رجلها

ومالت الشمس إلى المغيب ... وهبت نسمات باردة تنذر باقتراب الليل ... وفزعت الأطيار إلى أوكارها ... فى حين كانت المرأة تسير فى شارع « اليهود » وقد لفت نظرها منزل قبطان عجوز ... كان يقف ببابه « دلال » ينادى على أثاث المنزل لبيعه ... وفى تلك الآونة كان الرجل ممسكا بقفص قد استقر فيه ببغاء وهو يهتف :

— ثلاثة فرنكات ... طائر يتكلم كرجل القانون ... فقط ثلاثة فرنكات

وتمتمت ديزيريه لصديق كان يتأبط ذراعها :

— يجب عليك شراؤه فسيكون لك نعم السمير. إننى واثقة من أن ذلك الطائر يساوى ثلاثين فرنكا ثقتى من أنك تستطيع بيعه ثانية بعشرين أو خمسة وعشرين فرنكا

وارتفع صوت الدلال مرة أخرى قائلاً :

هيا ... أربعة فرنكات أيها السادة ... أربعة فرنكات.. إنه يستطيع الترتيل، فياله من أعجوبة نادرة.

وأخيراً . . انتقلت ملكية الببغاء وقفصه لديزيريه بعد أن رفعت ثمنه لأربعة فرنكات وخمسين سنتيما

وتمتمت المرأة قائلة بغضب لما رأت نقطة من الماء تلوث يدها حين لامست رقبته وهى تضع له شيئاً من الطعام فى حجرتها

— يا لله ... لم أكن أعلم أنه جريح

وتوجهت إلى فراشها بعد أن وضعت للطائر شيئاً من الطعام وإناء صغيراً مملوءاً بالماء

ولم تكن أنوار الفجر الوردية قد بدت بعد، حين تعالى إلى أذنى مدام پاتان صوت واضح جلى يقول :

— ألم تستيقظى بعد أيتها المنكودة ؟

لقد رجع زوجها أخيراً . . . فذلك الصوت صوته وتلك عادته فى مناداتها إذا ما استيقظ فى الصباح . وأحست رعشة تسرى فى عروقها فدفنت وجهها تحت الوسادة بينما راح جسدها يرتجف ارتجافاً واضحاً وهى تتمتم قائلة لنفسها :

— يا إله السموات . . . لقد رجع ثانية وها هو ذا . . . يالله

ومرت بضع دقائق دون أن يعكر صفو السكون الشامل صوت .. فأخرجت رأسها من تحت الوسادة، كانت متأكدة من وجوده بالقرب منها يرقبها وهو على أتم استعداد للانهيال عليها بالضرب كما كان فى الماضى البعيد ... ولكنها لم تر شيئاً غير أشعة الشمس التى ابتدأت تخترق زجاج النافذة ، فهمست قائلة لنفسها :

— لا بد أن يكون مختفياً فى مكان ما

وظلت تنتظر . . . وطال انتظارها فعاودها بعض هدوئها وغمغمت :

— إننى لم أره ... إذاً . . . لا بد أننى كنت أهيم فى وادى الأحلام

وأغمضت عينيها مرة أخرى فى اللحظة التى ارتفع فيها صوت پاتان كالرعد قائلاً :

ألا زلت نائمة أيتها الملعونة ؟

وقفزت من فراشها وقد انتابها فزع المرأة الطاعنة التي ظلت أربعة أعوام كاملة وهي ترزح تحت عبء الذكرى الأليمة ... ذكرى العذاب الذى كان يسببه لها صوت ذلك الرجل الكريه ... وهتفت :

— ها أنا ذى يا پاتان ... ماذا تريد ؟

ولم يكن هناك من جواب

وتلفتت حولها فى دهشة ... ثم أخذت تبحث فى كل مكان ... ولكنها لم تجد أحداً ...

وتهالكت على مقعد بالقرب منها وهى تحس بروح پاتان ترفرف فوق رأسها ... وأخيراً تذكرت الحجرة الصغيرة الإضافية الواقعة فوق حجرة الطعام .. لا بد وأن يكون مختبئاً هناك فى انتظار مفاجأتها ... ثم ... ثم العودة إلى نفس الحياة القاسية التى كانت تحياها من قبل ... ونظرت إلى سقف الغرفة وهى تقول متسائلة

— هل أنت فوق يا پاتان ؟

ولم يكن هناك من جواب

وتسللت إلى الخارج فأحضرت سلماً تسلقته ونظرت فى الحجرة الصغيرة لترى ... لتراه ... ولكنها لم تعثر عليه ... فجلست على الأرض وابتدأت تبكى وهى ترتعد. ومن أسفل جاءها صوت پاتان يقول:

— أى جو وأى رياح ..؟ إننى لم أتناول وجبة الصباح بعد

وصرخت المرأة من أعلى قائلة :

— إننى هنا يا پاتان.. ها أنا ذى فى طريقى إليك لإعداد طعامك فلا تغضب.. ها أنا ذى آتية. وهبطت السلم بسرعة فائقة . ولكنها لم تجد أحداً بانتظارها

وأحست بضعف مميت يغمرها من رأسها لأخمص قدميها . وفكرت فى أن تهرع إلى الخارج مستغيثة حين ارتفع صوت پاتان قائلاً :

— إننى لم أتناول طعامى بعد أيتها الـ ...

كان البيغاء فى قفصه يتابع كلماته ، وهو يحدق فيها بعينين كجمرتين .

ونظرت إليه والدهشة تغمرها ثم تمتمت :

— إذا ... إنه أنت . وتكلم البيغاء ثانية وهو يحرك رأسه :

انتظرى ... انتظرى قليلاً ... فسألقى عليك درساً لتكونى أشد كسلاً منك الآن .

أى أحاسيس شعرت بها المرأة فى تلك اللحظة ؟ لقد شعرت تماماً أن الرجل الميت قد بعث مرة أخرى ... بعث حياً فى هيئة ذلك البيغاء .

إذا ... سيعود مرة أخرى لإهانتها ... كما كان فى الماضى ... وسوف لا يمر يوم بهدوء ... وجيرانها ... سيعودون حتماً للهزء بها والسخرية منها

وأسرعت المرأة نحو القفص ففتحته . وأخرجت الطائر الذى زاح يدافع عن نفسه بمخالبه فيدمى يديها ... ولكنها لم تعبأ به ... وتهالكت فوقه على أرض الغرفة ... وراحت بكل قواها تضغط على رقبته حتى سكنت حركته .

لم يعد يتحرك، لم يعد يتكلم. ولكنه كان مستكينا استكانة الأبد بين ذراعيها . وجمعت الريشات الخضراء المتناثرة هنا وهناك بيد مرتجفة ووضعتها مع الجسد المسجى على الأرض فى لفافة صغيرة ... ثم هرولت إلى الخارج عارية القدمين ... وقذفت بالحزمة الحاوية لـ ... للشىء الميت فى مياه البحر الهادئة ... فبدت كحزمة من البرسيم الأخضر طافية فوق المياه الزرقاء .

وعادت إلى حجرتها فركعت على ركبتيها أمام قفص الطائر الميت ... وراحت تبكي .

كانت تشعر أنها ارتكبت إثماً ... إثماً هائلاً كأكبر الجنايات وحشية ... فابتدأت تدعو الله أن يغفر لها .

عادل الجمال